غسان تويني

ميشال شيحا
الصحافي الفيلسوف

من النافذة العالية ـ وبعضهم يقول من نافذة البرج، البرج العاجي ـ من النافذة العالية يطل ميشال شيحا، كل نهار على الحياة.

للطبيعة، حلوة او قاسية، منه التفاتة...

السياسة المحلية تستوقفه، وهو يبلغ ببصره ابعد آفاق العالم، وينفذ ببصيرته الى اعمق ما يكمن وراء ما يقال، سواء ما يقال قد قيل من على ارفع منبر او أصغر منبر.

الذين يقرأون ميشال شيحا كل نهار قد لا يعرفونه جميعاً... فزجاج النافذة العالية ملوَّن لا يرى خلاله من الخارج، والجالس خلفه، الناظر خلاله، من الداخل، الى الحياة، الى الطبيعة والانسان، بل والى الله، يرى الحياة ملونة بلون الزجاج.

وقد قيل عن هذا الزجاج، فوق ما قيل عن الوانه، انه مُحجَّر، يعكس الاشياء احياناً، فلا تظهر على حقيقة واقعها بل تُرى منعكسة ـ ولم أسمع انه قيل معكوسة ـ منعكسة تبعاً للزاوية التي ترى منها، ولزاوية النور المُسلَّط عليها.

وقيل اخيراً ان البرج عال، متعال، بحيث لا يبلغه صراخ التعساء وأنين المتألمين، فيظل فيه العقل صافياً والقلب هادئاً، وكأن اليد التي تبقى منه بما تكتب انما تتحرك في فراغ ما يحيط بها وما يكمن وراءها، ولا ضغط عليها من الحياة ونبضات الحياة.

ولكن هل فات القائلين هؤلاء أن العالم كله لا يُرى ـ وقد لا يكون له وجود ـ الاّ من خلال زجاج ملون؟ أليس الفيلسوف الالماني «قنط» هو الذي اكتشف كيف ان الوجود الذاتي هو غير الوجود الذي نلمس وندرك ونعقل، وان الوجود، كل الوجود، بالنسبة الى الانسان الانسان ـ ومن ثم، مع الفيلسوف الانكليزي «هيوم»، الى الانسان الفرد ـ ان هو

الاّ الوجود الذاتي كما نلمسه بحواسنا وندركه بالذهن البشري ونعقله؟

فهل يُلام ميشال شيحا اذا كان دقيق الحواس، جميل الادراك، صافيه، عميق التعقل؟

وهل يُلام ـ وليس في ما يكتب ما ينمّ عن غير ارادة الخير والايمان بالحق ـ هل يلام اذا كان يحب الجمال، ولا يريد ان يرى في كل ما يرى، غير الجمال؟

«الشتاء الذي انهمر تلك الليلة على الجبل، الشتاء الذي كنا نرجوه وننتظره لقد لقينا روائعه عند الصباح. كانت الشمس تطل عندما اطل على الطريق صبي ابن خمس عشرة او ست عشرة سنة، رصين كالعادة، يرافقه كلبه الكبير، وكلاهما سكران من تنشق رائحة الصمغ والنعنع والفرفحين، المنبثقة من الارض المبلولة».

ويمضي ميشال شيحا في وصف الصباح الى ان يقول:

«ومن اجل ذلك، نكتب هذه الاسطر للقارئ السأمان وغير السأمان، ونحن في شبه بحران، امام المناظر المغسولة حيث تركز الشمس نفسها بجلال، بشطحات واسعة من ريشتها.

«أن نحكي ذلك ليس صحافة من دون شك، ولكنه من النور والحياة. وفي زمن يحسب فيه كل ما يرتفع بالانسان نبلاً، ويحصى الى هذا الحد، يجدر بكل واحد منا ان ينال حصته!

«... ترى، ما هو هذا القانون الصارم الذي يفرض علينا الا نتكلم، كل صباح، الا عن مآسي الامم وتعاسة العالم؟»

سيداتي، سادتي،

في الصحافة، احتل ميشال شيحا مركزه الفذ لأنه تمرّد، وعرف كيف يتمرد، على هذا القانون الصارم! فمن افتتاحايته ما هو شعر، حيناً، ومنها ما يعالج ابعد القضايا الفكرية عن حدث اليوم، ومنها ما يتناول بالذات، الشيء الذي يعلم الكاتب ان القارئ لم

يتوقف عنده، ولن يتوقف... غير أن منها، احياناً، ما يثير اكثر المسائل اتصالاً بالحياة اليوم، بمشاكلها، وبالقضايا التي تتعثر بها، والتي قل ان يعرف سواه من الصحافيين، بهذا الوضوح، كيف تُحلّل، وكيف تُعالج، وكيف تُحلّ. ولا ننسَ ان منها ـ من هذه الافتتاحيات ـ كانت المقالات التي ساهمت، بالقسط الكبير، في دك العهد الذي ساهم ميشال شيحا، نفسه في بنائه، ساعة بدأ العهد يخرج على ما اراده له البناة... بوركت اليد، في البناء وفي الهدم!

وبعد، فلئن يكن يُعاب على افتتاحيات ميشال شيحا انها لا تشكل كمجموعة، تاريخاً للزمن الذي كُتبت فيه، بحيث لا يجد فيها القارئ، سجلاً، وان ملوناً، للاحداث التي عايشها الكاتب، بل لا يجد فيها اثراً لبعض الاحداث التي لا يمكن ان تكون قد مرت بها البلاد ولا اثر ـ لئن يكن يُعاب على مجموعة افتتاحيات ميشال شيحا انها ليست تاريخاً، فان ما يشفع بها انها تقدِّم، من دون سواها، فلسفة للتاريخ الذي ضبطَ وقائعه سواها!

ومن النادر ان نجد صحافياً تستقرأ من مجموعة مقالاته نظرة شاملة الى الوجود، وفلسفة حياة جلية واضحة في مجرد عرضها دعوة اليها...

من هنا فذوذية المركز الذي يحتله ميشال شيحا في صحافة بلادنا التي عرفت كيف تحافظ على ما في وسعنا اعتباره طابعاً رسولياً ـ بحيث لم تتحول صحافة خبر، لمجرد قيمة الخبر، ولا كانت صحافة رأي، تكتفي بتسجيل رأيها في الخبر، بل كانت وظلت، اداة نشر رسالة، والنضال من اجلها، علاقتها بقرائها علاقة المبشّر باتباعه لا التاجر بزبائنه. فميشال شيحا ليس الصحافي الرسولي، وقل الرسول، فحسب، بل هو، في مرتبة ارفع من تلك، الصحافي الفيلسوف، بالمعنى الذي أسس له الاغريق هذه الكلمة: المحبة للحكمة، الانسان الناظر، هادئاً، الى الكون من علٍ بصفاء المترفع، المتجرد حتى التحرر من مشاغل الحياة الدنيا، بل من نواميسها.

سيداتي، سادتي،

أراني قد ارتفع بي منطق البحث الى البرج العاجي، من جديد، يسألني ان اصف لون النافذة العالية، وان من خارج... ذلك أنه لم يتسنَّ لي ان ادخل البرج يوماً، لأتعرف الى الرجل الذي كتب ما اقرأ، فلسواي ان يتحدثوا عن الرجل، عن عقله، وقلبه، وعن اليد التي يكتب بها.

اما الفلسفة التي تستقرأ مما يكتب، فتعلق بالحرية لا يحد... حرية الانسان، المتولدة من معرفته للحق، الحق المجسد في من قال انه الحق والحياة... ومن ثم، حرية الفرد، التي تضمنها الشرائع الديموقراطية، متى أُحسن تطبيقها فيتظلّل بها الحكم الصالح الذي يطمح اليه كل شعب.

من اجل ذلك، من اجل هذا المثال، نرى ميشال شيحا، على الصعيد المحلي الضيق، يُعنِّف الحكم الذي «دافع عنه لأسباب تتعداه» فيفضح الديكتاتورية المقنَّعة «الديكتاتورية الاوليغارشية المستندة الى الاقطاعية»، متى تسعى الى تحويل نفسها «ديكتاتورية سافرة» فيدعو الى احلال المسؤولية حيث توجد السلطة، والى «تبديل ذهنية الحاكم» لأن «الجمهورية تبقى جمهورية او تنقلب طغياناً تبعاً لنهج رؤسائها الحقيقيين»...

من اجل هذا المثال، نراه يتألّم لموت جان مازاريك الذي كان «صورة للحرية»، فانتحر «لأنه رأى الحرية تموت»، يتألم، فيتساءل «اين هم ديموقراطيو اوروبا الكبار؟» ثم يقول: «ان العالم لن يستيقظ الا عندما يترك الروح تحكمه من جديد... عندما تصبح الحرية الحقيقية عنده حرية الفكر، والجوع الاهم، الجوع الى الحقيقة...».

من اجل هذا المثال يكتب ميشال شيحا عن انقسام اوروبا وكأنه يكتب عن انقسام في قلبه، يحسه في اعماقه، ثم يدعو الى اتحاد الديموقراطيات، حتى يتأكد انتصارها الذي هو انتصار الحرية والحقيقة، على المادة والكفر بالله وبطبيعة الانسان الحقة...

ومن اجل ذلك اخيراً، يدعو لبنان للرجوع الى اصالة ثقافته ونفسيته، ويحتّم على الدول العربية كلها ان تتصل، عبر البحر المتوسط، برابطة الغرب الديموقراطي، الممثلة في قيم التراث الذي كنا من بناته، فاذا بسوانا يدافع عن هذه القيم، وبالتالي عنا، ونحن في

صراع الحق هذا متفرّجون؟

سيداتي، سادتي،

من حقكم عليَّ ان تسألوني الى اي حد ـ وهذه فلسفة ميشال شيحا وهذه نظرته الى الحياة، وهذه مُثُلُه ـ الى اي حد يمكن ان نعتبر ان شيحا قد وفى هذه المبادئ حقها، وهو المكتفي بالقاء ما يكتب من نافذة البرج؟ أليس شرط الصحافة الرسولية ان ينزل حامل الرسالة الى المعترك، وان يناضل من اجل ما يؤمن به، وان يسعى الى احقاق ما يؤمن به حقاً، بشتى وسائل الاحقاق؟

بل، هل من حق القادر على ابداع مثل هذه الرسالة، المؤمن بها، القادر على تشخيص امراض جمهوريتنا بهذه الدقة، وعلى رسم الحلول لمشاكلها، من ضمن حلوله لمشاكل العالم المحيط بها ـ هل من حق رجل هذا شأنه ألا ينزل الى المعترك، ليؤكد نفسه نجاح القضية؟ وهل يعتقد الرجل الهذا شأنه، وقدره، ان المسؤولين عما شخَّص من امراض في وسعهم، بسحر ساحر، او بوازع من عظة، ان يتحولوا عن الهدم الى البناء، وعن الظلم الى العدل، وعن الفساد الى الخير، وان ينهجوا، من غير ما اكراه، النهج الذي تمليه الكرامة ومحبة الحرية؟

الجواب عن هذه التساؤلات، اجده في فلسفة ميشال شيحا نفسه، وفي جوهر موقفه من الحياة، فلئن يكن من واجب الرسالة على الرسول ان ينزل الى المعترك، فشرط الفلسفة، من حيث هي محبة الحكمة والنظر الهادئ الصافي الى الكون، من عل، ان يكون الفيلسوف مترفعاً متجرداً حتى التحرر من مشاغل الحياة الدنيا، وبالتالي من نواميس معترك الحياة...

وحسب ميشال شيحا، انه كان، في الساعات المظلمة، وانه لا يزال، ديدباناً على الحق، من برجه العالي، يمثل ما هو اكثر من استمرار النور في برج المنارة: يمثل استمرار الوجود الذاتي، في الايمان به، وسط تقلبات الصيرورة والتطور، بحيث تستمد

من الايمان المستمر بالوجود الدائم تلك القيم التي تضمن وحدها الا يشط التطور، والا تسير الصيرورة نحو العدم.

اذ متى افسدت الصيرورة الايمان، فماذا يخلِّصها من العدم؟

(القيت في حفلة تكريم ميشال شيحا في «الندوة اللبنانية» ونشرت في «النهار» في ١٩٥٤/١٢/٢٨)